الخطابة عند العرب في العصر الجاهلي : سنة ثالثة دعوة المحاضرة الثالثة

1-نشأتها: كانت حال العرب وطبيعة بيئتهم وظروفهم، مشجعة على الخطابة، ومثيرة لها، بالإضافة إلى ما كانوا يتمتعون به من حرية التعبير عن آرائهم، وما كانوا يتحلون به من شجاعة وإقدام، وما كانوا يتصفون به من البلاغة والفصاحة، والتمكن من ناصية اللغة، حيث كانت اللغة طيعة لهم، مثرية لكلامهم، ومزينة لأدبهم. كل هذا ونحوه، أسهم في انتعاش الخطابة عند العرب في الجاهلية، وجعل لها مكانا في حياتهم ومكانة، ودعت إليها الحاجة، وتعددت أغراضها، وكثرت مناسباتها، وتباروا فيها، وتفننوا في إلقائها، وتسابقوا في تحسينها وتجويدها، يقول الدكتور إحسان النص : «عرفت الخطابة في العصر الجاهلي، وكانت الحياة العامة في ذلك العصر تستدعي وجود ذلك الفن، فالحياة القبلية وما تستتبعها من منازعات وخصومات وحروب، وما تؤدي إليه هذه الحروب أحيانا من محاولات لإصلاح ذات البين، ونشر السلم بين القبائل المتنازعة. واضطراب الحياة الدينية عند العرب قبل الإسلام وما وافق هذا الاضطراب من محاولات للإرشاد والدعوة لنبذ عبادة الأوثان. والحياة السياسية في ذلك العصر وما كانت تفرضه على العرب من صلات سلمية أو حربية بالأمم المجاورة لهم، وصلات أفراد المجتمع القبلي بعضهم ببعض، من تزاوج وتعامل وتنافر وتفاخر، وما فطر عليه العرب من فصاحة ولسن، وحضور بديهة كل أولئك أمور كانت تستدعي معرفة العرب في الجاهلية بالخطابة، بل أن تصيب عندهم حظا من الرقي». وقد تعددت موضوعات الخطابة عند العرب وعرف منها: 1- الصلح. 2- إثارة المحبة وإيقاظ الحماسة وتثبيت القلوب.

3- المفاخرة 4- الدعوة إلى الفضيلة 5- الرثاء والحزن. 6- الدعوة إلى وحدة العرب. 7- الوصايا. 8- الزواج.

2-ألوان خطب العرب : للخطب العربية ضربان : طوال - قصار. فالطوال يراعون فيها مقتضي الحال فكانوا في خطب الصلح مثلا يطيلون لأن المقام يقتضي الإطناب، بينما يحبون الخطب القصار في غير هذا المقام بل كانوا يميلون إلى ذلك ويستحسنونه.

وعلى كل حال فقد كانت خطبهم الطوال وافية كما كانت القصار كافية. قيل لأبي عمرو بن العلاء : هل كانت العرب تطيل؟ فقال : نعم ليُسْمع منهم، فقيل له: وهل كانت توجز؟ قال نعم ليُحفظ عنهم. «وقد مدحوا الإطالة كما مدحوا الإيجاز، كل في مكانه، فكانوا يستحسنون الإطالة في خطب الصلح، كخطبة خارجة بن سنان في شأن الصلح بين عبس وذبيان حيث قيل له ما عندك؟ فقال: قرى كل نازل، ورضا كل ساخط، وخطبة من لدن مطلع الشمس إلى أن تغرب آمر فيها بالتواصل، وأنهي فيها عن التقاطع، قالوا: فخطب يوما إلى الليل فما أعاد في خطبته معني، ولكن العرب كانوا إلى القصار أمْيَل:(1) لانطباعهم على الإيجاز.(2) ولأنها إلى الحفظ أسهل وأسرع.(3) وأنها في البقاع أشيع. وكان للخطيب العربي منزلة عالية إذ هو زعيم القبيلة وبطلها، يعلوهم فصاحة ويسبقهم بيانا، وإلا لما سيطر عليهم لذلك فهو من اللسن المقاويل، ليس فيه عي ولا حصر، بل هو طلق اللسان، فصيح العبارة، جيد الإلقاء، قوي النفس يثبت في مواطن الحرب إذا حمي الوطيس، وهو أيضا جهير الصوت مرتفعه حاضر البديهة، جميل الشكل، ذو سمت ووقار ومهابة. واشتهر منهم خطباء كثيرون، وأشهر خطبائهم في هذا العصر قس بن ساعدة الإيادي، وعمرو بن كلثوم التغلبي، وأكثم بن صيفي التميمي، والحارث بن عباد البكري، وقيس بن زهير العبسي، وعمر بن معد يكرب الزبيدي».

ومن عادات العرب في الخطابة : (1) أن يقف الخطيب على مرتفع من الأرض.(2) أن يكون على زى خاص في العمامة واللباس تفخيما لهم.(3) أخذهم المخصرة بأيديهم، وهي شيء يشبه العصا (**1**).(4) ومن عادتهم أيضا رفع أيديهم ووضعها وتأدية كثير من أغراضهم بحركاتها إن كان ثمة أيضا داع ولم تذهب تلك الحركات بهيئة الخطيب ووقاره ورزانته.

3–نماذج للخطب في العصر الجاهلي : اشتملت الخطابة في العصر الجاهلي على أنواع متعدِّدة من الخطب ؛ فكان منها الخطبُ العسكريَّةُ التي يحضُّ فيها القادةُ الجنودَ على القتالِ كخطبة هانئ بن قَبِيْصَةَ الشَّيبانيِّ [1] في قومِه بكرٍ يحرِّضُهم فيها على قتال الفرس يومَ ذي قارٍ, قالَ هانئُ بنُ قَبِيْصَةَ الشيبانيُّ يُحرِّضُ قومَه يومَ ذي قَارٍ (1) يا معشرَ بَكْرٍ ، هالكٌ معذورٌ خيرٌ مِن ناجٍ فَرُورٍ . إنّ الحذرَ لا يُنْجي مِنَ القَدَرِ ، وإنّ الصبرَ مِن أسبابِ الظَّفَرِ . المَنِيَّةَ ولا الدَّنِيَّةَ . استقبالَ الموتِ خيرٌ مِن استدباره . الطَّعْنَ في ثُغَرِ (2) النُّحُورِ أكرمُ منه في الأعْجَازِ والظُّهُورِ . يا آلَ بكرٍ ، قاتِلُوا ، فما للمنايا مِنْ بُدٍّ . "

–1كانَ مِن أعظمِ أيامِ العربِ وأبلغِها في توهينِ أمرِ الأعاجمِ ، وهو يومٌ لبني شيبانَ . وكانَ أبرويزُ أغزاهم جيشًا ، فظَفِرَ بنو شيبانَ ، وهو أولُ يومٍ انتصرَتْ فيه العربُ مِنَ العجمِ .

–2جمع ثُغرة (بضم الثاء) وهي : نَقْرَةُ النَّحْرِ بينَ التُّرْقُوَتين.

والثَّغْرَة (بفتح الثاء) : كلُّ عورةٍ منفتحةٍ.

والخطبُ الدِّينيَّةُ أو الوعظيَّةُ التي يدعو الخطيب فيها إلى إعمال العقل والتَّفكُّر في الآيات الكونيَّة, ويهدف إلى إيقاظ النَّاس من الغفلة عن المعجزات الإلهيَّة كخطبة قُسِّ بن ساعدةَ الإياديِّ في سوق عكاظ, قِس بن ساعِدَة بن عُدي مِن قَبيلةِ إياد بِنَجران ، كان زاهِداً في الدنيا وخُصوصاً بعد أنْ مات له أخوان و دفنَهُما بيده . و كان قِس يَحضُرُ سوقَ عُكاظ و يَسيرُ بَين الناس و يُنذِرهُم..

ولقد ضُرِبَ بِه المثلُ في الخطابة و البلاغة و الحكمة فيقال إنَّه أولُ مَن كَتب "مِن فلان إلى فلان " ، وأولُ مَن قال " أما بعد "، وأولُ مَن قال "البينة على مَن ادَّعَى واليمينُ على مَن أنكر" ، ويقال أنَّه قد عاش مائة وثمانين سنة و قد توفي قبل بعثة النبي بعشر سنين.

كان قس بن سِاعدة يُنكِر المنكر الذي شاع في الجاهلية ، و الغفلات التي كانت تسيطر على الناس فتُنسيهم الموت و البعثَ و الجزاء و كان قِس و كثيرٌ مِن العقلاء يتوقعونَ أنْ يُبْعث نبيٌ يُغيرُ ما شاع في الجاهلية مِن مُعتقداتٍ فاسدة و منكرات مُوبِقة (مهلكة) .. وهذه خُطبةٌ له قالها في سوق عُكاظ قبل ظُهور الإسلام، فيها تأملاتُه في الحياة و الكون بحثاً عن وجود الخالق يُقدِّمُ فيها نُصحه مخلصاً.

أَيُّهَا النَّاسُ، اسْمَعُوا وَعُوا، إِنَّهُ مَنْ عَاشَ مَاتَ، وَمَنْ مَاتَ فَاتَ، وَكُلُّ مَا هُوَ آتٍ آت.. ،لَيْلٌ ساج (**2**)، وَنَهَارٌ ضاْح (**3**) ، وَسَمَاءٌ ذَاتُ أَبْرَاجٍ ، وَنُجُومٌ تَزْهَر ، وَبِحَارٌ تَزْخَر ..، إِنَّ فِي السَّمَاءِ لَخَبَرًا، وإِنَّ فِي الأرضِ لَعِبَرًا . مَا بَالُ النَّاسِ يَذْهبُونَ وَلاَ يَرْجِعُون ؟! أَرَضُوا بِالمقَامِ فَأَقَامُوا، أَمْ تُرِكُوا هُنَاك فَنَامُوا ؟ يَا مَعْشَرَ إِيَاد : أَيْنَ الآبَاءُ والأَجْدَادُ ؟ وأَيْنَ الفَرَاعِنَةُ الشِّدَادُ ؟ أَلَمْ يَكُوْنُوا أَكْثَرَ مِنْكُم مَالاً و أطولَ آجالاً .. ؟ طَحَنَهُم الدهْرُ بِكَلْكَلِهِ، ومزَّقَهم بتطاوُلِه.ويُروى أنّه أنشد بعدها فقال:

([1]) انظر البيان والتبيين– 370/1 ، 5/3.

([2]) ليل ساج : يجيءُ ويذهب / الوسيط 478/1.

([3]) نهار ضاح : ظاهر وواضح المرجع السابق /555

في الذاهبينَ الأولينَ مِن القرونِ لنا بَصائر -- ورأيتُ قومي نَحوها تَمضي الأصاغِرُ والأكابر
لا يَرجعُ الماضي إليّ ولا مِن الباقين غابر -- أيقنتُ أني لا محالةَ حيثُ صارَ القومُ صائر

والخطبُ التي تُقالُ في المناسبات الاجتماعيَّة كإصلاح ذات البين, ومِثّلها الخطب التي قيلت في إصلاح مَرثَدِ الخيرِ بين سُبَيعِ ابنِ الحارثِ وبين مَيثَمِ بنِ مُثَوِّبٍ)

وخطب النِّكاح كخطبة عامرِ بنِ الظَّرِبِ العَدوانيِّ وقد خُطِبَت ابنتُه ,(وخطبة أبي طالب في زواج رسول الله ,(وهي الخطبةُ التي قال عنها المبرِّدُ (285 هـ): (إنَّها من أقصد خُطَبِ الجاهليَّة» .()(الحمد لله الذي جعلنا من ذرية إبراهيم وزرع إسماعيل وضئضىء معد (معدنه) وعنصر مضر (أصله) وجعلنا حضنة بيته وسوَّاس حرمه، وجعل لنا بيتا محجوجا وحرما آمنا وجعلنا الحكام على الناس، ثم إن ابن أخي هذا محمد بن عبد الله لا يوزن برجل إلا رجح به شرفا ونبلا وفضلا وعقلا، فإن كان في المال قل فإن المال ظل زائل وأمر حائل، ومحمد من قد عرفتم قرابته وقد خطب خديجة بنت خويلد وبذل لها ما آجله وعاجله كذا، وهو والله بعد هذا له نبأ عظيم وخطر جليل جسيم»، فلما أتم أبو طالب الخطبة تكلم ورقة بن نوفل ابن عمّ خديجة فقال:

»الحمد لله الذي جعلنا كما ذكرت وفضلنا على ما عددت فنحن سادة العرب وقادتها وأنتم أهل ذلك كله لا تنكر العشيرة فضلكم ولا يرد أحد من الناس فخركم وشرفكم؛ وقد رغبنا في الاتصال بحبلكم وشرفكم فاشهدوا عليّ معاشر قريش بأني قد زوجت خديجة بنت خويلد من محمد بن عبد الله على كذا» ثم سكت.

فقال أبو طالب: قد أحببت أن يشركك عمها، فقال عمها عمرو بن أسد:

»اشهدوا عليّ يا معشر قريش أني قد أنكحت محمد بن عبد الله خديجة بنت خويلد» فقبل النبي ﷺ النكاح وشهد على ذلك صناديد قريش.

وأولم عليها ﷺ فنحر جزورا، وقيل: جزورين وأطعم الناس وأمرت خديجة جواريها أن يرقصن ويضربن الدفوف، وفرح أبو طالب فرحا شديدا وقال: الحمد لله الذي أذهب عنا الكرب ودفع عنا الغموم، وهي أول وليمة أولمها رسول الله ﷺ